الفصل الثالث

هل فسّر الرسول ﷺ القرآن كله؟

أنزل الله سبحانه وتعالىٰ القرآن علىٰ قلب النبي ﷺ ، وجاء فيه تعهّد الله بحفظه وبيانه ، قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾(١) .

وفي القرآن الكريم بيان واضح لإحدى وظائف رسول الله ﷺ ، وهي تبيين معاني القرآن الكريم ، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾(٢) وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٣) .

وبالتالي فالسنة النبوية شقيقة القرآن الكريم ، فما جاء مجملاً في القرآن فصّلته السنّة ، وما جاء عاماً خصصته السنة ، وما جاء مطلقاً قيدته السنة ، وهكذا.

فالقرآن الكريم وحي من الله تعالىٰ ، بنصّه ومعانيه ، أمّا السنة فهي وحي من الله من جهة معانيها، بينما نصوصها فهي من كلام رسول الله ﷺ.

ومن الأدلة علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ

---

(١) القيامة: ١٧ ـ ١٩.

(٢) المائدة: ٦٧.

(٣) النحل: ٤٤.

يُوحَىٰ﴾[1] وقول رسول الله فيما رواه الإمام مسلم: «إن الله أوحىٰ إليّ أن تواضعوا حتىٰ لا يفخر أحدٌ علىٰ أحدٍ ولا يبغي أحد علىٰ أحد».

وقوله ﷺ فيما رواه أبو داود «ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان علىٰ أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلّوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السباع، ولا لقطة معاهد، إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه».

ويُفهم من هذا الحديث وغيره أن الله تعالىٰ أنزل القرآن علىٰ النبي ﷺ وأذن له في شرح ما في هذا القرآن وتفصيله، وعلق الإمام القرطبي علىٰ هذا الحديث بقوله: فقوله: «أوتيت الكتاب ومثله معه» معناه أنه أوتي الكتاب وحياً يتلىٰ، وأوتي من البيان مثله، أي أذن أن يبين ما في الكتاب، فيعم ويخص، ويزيد عليه، ويشرح ما في الكتاب، فيكون في وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن.

ويحتمل وجهاً آخر: وهو أنه أوتي من الوحي الباطن غير المتلو، مثل ما أعطي من الظاهر المتلو، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[2].

وأما قوله: «يوشك رجل شبعان... إلخ» فالمقصود منه التحذير من مخالفة السنّة التي سنّها الرسول ﷺ وليس لها ذكر في القرآن، كما هو مذهب الخوارج والروافض الذين تعلّقوا بظاهر القرآن، وتركوا السنن التي ضمنت بيان الكتاب فتحيّروا وضلّوا.

---

(١) النجم: ٣ ـ ٤.
(٢) النجم: ٣ ـ ٤.

روىٰ الأوزاعي عن حسان بن عطية قال: كان الوحي ينزل علىٰ رسول الله ﷺ ويحضره جبريل بالسنّة التي تفسر ذلك.

وروي عن مكحول قال: القرآن أحوج إلىٰ السنّة من السنّة إلىٰ القرآن[1].

لكن: هل فسر الرسول ﷺ القرآن كله؟

هناك جدل بين العلماء في هذه المسألة، وقد أراحنا الشيخ محمد حسين الذهبي في البحث عن ذلك، حيث قال:

اختلف العلماء في المقدار الذي بيّنه النبي ﷺ من القرآن لأصحابه: فمنهم من ذهب إلىٰ القول بأن رسول الله ﷺ بيّن لأصحابه كل معاني القرآن كما بيّن لهم ألفاظه، وعلىٰ رأس هؤلاء ابن تيمية[2].

ومنهم من ذهب إلىٰ القول: بأن رسول الله ﷺ لم يبيّن لأصحابه من معاني القرآن إلا القليل، وعلىٰ رأس هؤلاء: الخوبي (ت: ٦٣٧ هـ) والسيوطي (ت: ٩١١ هـ)[3].

وقد استدلّ كل فريق علىٰ ما ذهب إليه بأدلة نوردها ليتضح لنا الحق، ويظهر الصواب.

ـ أدلة من قال بأن النبي ﷺ بيّن كل معاني القرآن:

---

(١) للتوسع يراجع: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١/ ٣٨ ـ ٣٩.

(٢) قال في الصفحة التاسعة من كتابه مقدمة في أصول التفسير: يجب أن يُعلم أن النبي ﷺ بيّن لأصحابه معاني القرآن كما بيّن لهم ألفاظه.

(٣) قال الإمام الخوبي: أما القرآن فتفسيره علىٰ وجه القطع لا يعلم إلا بأن يسمع من الرسول ﷺ، وذلك متعذر إلا في آيات قلائل، وللتوسّع في ذلك يراجع البرهان للزركشي: ١/ ١٧.
وقرر السيوطي مثل ذلك بقوله: الذي صح من ذلك قليل جداً بل أصل المرفوع منه في غاية القلة. للتوسع يراجع الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٢٢٨.

أولاً: قوله تعالىٰ ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

والبيان في الآية يتناول بيان معاني القرآن ، كما يتناول بيان ألفاظه ، وقد بين الرسول ألفاظه كلها ، فلا بدّ أن يكون قد بيّن كل معانيه أيضاً ، وإلا كان مقصراً في البيان الذي كلف به من الله.

ثانياً: ما روي عن أبي عبد الرحمن السلمي (ت: ٧٢ هـ) أنه قال: (حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن ، كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وغيرهما: أنهم كانوا إذا تعلّموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتىٰ يتعلّموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً).

ولهذا كانوا يبقون مدة طويلة في حفظ السورة ، وقد ذكر الإمام مالك في الموطأ: أن ابن عمر أقام علىٰ حفظ البقرة ثماني سنوات ، والذي حمل الصحابة علىٰ هذا ، ما جاء في كتاب الله تعالىٰ من قوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾[2] وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن.

وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[3] وعقل الكلام متضمن لفهمه ، ومن المعلوم أن كل كلام يقصد منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه ، والقرآن أولىٰ بذلك من غيره.

فهذه الآثار تدل علىٰ أن الصحابة تعلّموا من رسول الله ﷺ معاني القرآن كلها ، كما تعلموا ألفاظه.

ثالثاً: قالوا إن العادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم كالطب

---

(١) النحل: ٤٤.
(٢) ص: ٢٩.
(٣) يوسف: ٢.

أو الحساب ولا يشرحوه ، فكيف بكتاب الله الذي فيه عصمتهم ، وبه نجاتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة؟

رابعاً: ما أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه عن عمر رضي الله عنه أنه قال: من آخر ما نزل آية الربا، وأن رسول الله ﷺ قُبض قبل أن يفسرها: وهذا يدل بالفحوىٰ علىٰ أنه يفسر لهم كل ما نزل، وأنه إنما لم يفسر هذه الآية ، لسرعة موته بعد نزولها ، وإلا لم يكن للتخصيص بها وجه[1].

ـ أدلة من قال بأن النبي ﷺ لم يبيّن لأصحابه إلا القليل من معاني القرآن:

استدلّ أصحاب الرأي بما يأتي:

أولاً: ما أخرجه البزار عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما كان رسول الله ﷺ يفسّر شيئاً من القرآن إلاّ آياً بعدد، علّمه إياهن جبريل[2].

ثانياً: قالوا إن بيان النبي ﷺ لكل معاني القرآن متعذر ولا يمكن ذلك إلا في آي قلائل ، والعلم بالمراد يستنبط بأمارات ودلائل ، ولم يأمر الله نبيّه بالتنصيص علىٰ المراد في جميع آياته لأجل أن يتفكر عباده في كتابه[3].

ثالثاً: قالوا: لو كان رسول الله ﷺ بيّن لأصحابه كل معاني القرآن ، لما كان لتخصيصه ابن عباس رضي الله عنهما بالدعاء له بقوله: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» فائدة ، لأنه يلزم من بيان رسول الله ﷺ لأصحابه كل معاني القرآن استواؤهم في معرفة تأويله ، ولا معنى لتخصيص ابن عباس بهذا الدعاء؟[4].

---

(١) للتوسّع يراجع: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: ٢/ ٢٠٥.

(٢) للتوسّع يراجع: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١/ ٣١، تفسير الطبري: ١/ ٢١.

(٣) للتوسّع يراجع: الإتقان للسيوطي: ٢/ ١٧٥.

(٤) للشيخ محمد متولي شعراوي في كتابه: الإسلام عقيدة وشريعة: ١٩ ـ ٢٠ كلام رائع: (لم يفسّر لنا رسول الله ﷺ القرآن ، لأنه لو فسره لكان يجب أن يفسّره بما=

ـ مغالاة الفريقين:

ومن يتأمّل فيما تقدم من أدلة الفريقين يتضح له أنهما علىٰ طرفي نقيض ، و رأيي أن كل فريق منهم مبالغ في رأيه ، وما استند إليه كل فريق من الأدلة يمكن مناقشته بما يجعله لا ينهض حجة علىٰ المدعي.

مناقشة أدلة الفريق الأول:

فاستدلال ابن تيمية ومن معه علىٰ رأيهم بقوله تعالىٰ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] استدلال غير صحيح ، لأن الرسول ﷺ ـ بمقتضىٰ كونه مأموراً بالبيان ـ كان يبيّن لهم ما أشكل عليهم فهمه من القرآن ، لا كل معانيه ما أشكل منها وما لم يشكل.

وأما استدلالهم بما روي عن عثمان وابن مسعود وغيرهما من أنهم كانوا إذا تعلّموا من النبي ﷺ عشر آيات من القرآن لم يجاوزها حتىٰ يتعلموا ما فيها ، فهو استدلال لا ينتج المدعي ، لأن غاية ما يفيده ، أنهم كانوا لا يجاوزون ما تعلموه من القرآن حتىٰ يفهموا المراد منه، وهو أعم من أن يفهموه من النبي ﷺ أو من غيره من إخوانهم الصحابة ، أو من تلقاء أنفسهم ، حسبما يفتح الله به عليهم من النظر والاجتهاد.

وأما الدليل الثالث: فكل ما يدل عليه هو أن الصحابة كانوا يفهمون القرآن ويعرفون معانيه ، شأن أي كتاب يقرؤه قوم ، ولكن لا يلزم منه

= تطيقه عقول معاصريه ، ولو فسّره بالأشياء التي ستوجد في القرن العشرين أو الثلاثين أو الأربعين لتعجب معاصروه أيما تعجب ، ولاستعظموه أيما استعظام ، لأنه للآن ما زال أناس ينكرون أن الأرض كروية ، ولو أنه ﷺ فسّره علىٰ قدر عقل معاصريه ومعلوماتهم الكونية لحجّر علينا ولجمد القرآن ، لأنه من يتصدر لتفسير القرآن بعد ذلك سيواجه بأن الرسول فسّره هكذا ، وعليك ألا تزيد عن ذلك ، ولذلك فرسول الله ترك تفسير القرآن حتى تأخذ كل مرحلة فكرية من لمحات القرآن بقدر ما تستطيع ، وذلك في أمور الكونيات ، أما المطلوب من الأحكام فقد بينها صلوات الله عليه وأوضحها للناس).

أن يكونوا قد رجعوا إلىٰ النبي ﷺ في كل لفظ منه.

وأما الدليل الرابع: فلا يدل أيضاً، لأن وفاة النبي ﷺ قبل أن يبيّن لهم آية الربا لا تدل علىٰ أنه كان يبيّن لهم كل معاني القرآن، فلعل هذه الآية كانت مما أشكل علىٰ الصحابة، فكان لا بد من الرجوع فيها إلىٰ النبي ﷺ شأن غيره من مشكلات القرآن.

مناقشة أدلة الفريق الثاني:

وأما استدلال أصحاب الرأي الثاني بحديث عائشة رضي الله عنها، فهو استدلال باطل، لأن الحديث منكر غريب، لأنه من رواية محمد بن جعفر الزبيدي، وهو مطعون فيه.

قال البخاري: لا يتابع في حديثه، وقال الحافظ أبو الفتح الأزدي: منكر الحديث، وقال فيه ابن جرير الطبري: إنه ممن لا يعرف في أهل الآثار.

وعلىٰ فرض صحة الحديث فهو محمول ـ كما قال أبو حيان ـ على مغيبات القرآن.

وتفسيره لمجمله، ونحوه مما لا سبيل إليه إلا بتوفيق من الله، وفي معناه ما قاله ابن جرير وابن عطية[1].

وأما الدليل الثاني: فلا يدل أيضاً علىٰ ندرة ما جاء عن النبي ﷺ في التفسير، إذ أن دعوىٰ إمكان التفسير بالنسبة لآيات قلائل، وتعذره بالنسبة للكل غير مسلمة، وأما ما قيل من أن النبي ﷺ لم يؤمر بالتنصيص علىٰ المراد في جميع الآيات لأجل أن يتفكر الناس في آيات القرآن، فليس بشيء، إذ أن النبي ﷺ مأمور بالبيان، وقد يشكل الكثير علىٰ أصحابه فيلزمه البيان، ولو فرض أن القرآن أشكل كله علىٰ الصحابة ما كان للنبي ﷺ أن يمتنع عن بيان كل آية منه، بمقتضىٰ أمر

---

(١) للتوسّع: البحر المحيط: ١/ ١٣، الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٣١.

الله له في القرآن ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[1].

وأما الدليل الثالث: فلو سلمنا أنه يدل علىٰ أن النبي ﷺ لم يفسر كل معاني القرآن، فلا نسلّم أنه يدل علىٰ أنه فسّر النادر منه كما هو المدعىٰ.

اختيارنا في المسألة:

والرأي الذي تميل إليه النفس ـ بعد أن اتضح لنا مغالاة كل فريق في دعواه وعدم صلاحية الأدلة لإثبات المدعى ـ هو أن نتوسط بين الرأيين فنقول: إن الرسول ﷺ بيّن الكثير من معاني القرآن لأصحابه، كما تشهد بذلك كتب الصحاح، ولم يبين كل معاني القرآن، لأن من القرآن ما استأثر الله تعالىٰ بعلمه، ومنه ما يعلمه العلماء، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها، ومنه ما لا يعذر أحد في جهالته كما صرح بذلك ابن عباس بقوله:

التفسير علىٰ أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تعرفه العلماء من كلامها، وتفسير لا يعلمه إلا الله[2].

وبدهي أن رسول الله ﷺ لم يفسر لهم ما يرجع فهمه إلىٰ معرفة كلام العرب، لأن القرآن نزل بلغتهم، ولم يفسر لهم ما تتبادر الأفهام إلىٰ معرفته وهو الذي لا يعذر أحد بجهله، لأنه لا يخفىٰ علىٰ أحد، ولم يفسر لهم ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة، وحقيقة الروح، وغير ذلك من كل ما يجري مجرىٰ الغيوب التي لم يطلع الله عليها نبيّه، وإنما فسّر لهم رسول الله ﷺ بعض المغيبات التي أخفاها الله عنهم وأطلعه عليها وأمره ببيانها لهم، وفسّر لهم أيضاً كثيراً مما يندرج تحت

---

(١) النحل: ٤٤.

(٢) جامع البيان للطبري: ١/٢٦.

القسم الثالث ، وهو ما يعلمه العلماء ويرجع إلىٰ اجتهادهم كبيان المجمل ، وتخصيص العام ، وتوضيح المشكل ، وما إلىٰ ذلك من كل ما خفي معناه والتبس المراد به.

هذا ، وإن مما يؤيد أن النبي ﷺ لم يفسّر كل معاني القرآن ، أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، وقع بينهم الاختلاف في تأويل بعض الآيات ، ولو كان عندهم فيه نصّ عن رسول الله ﷺ ما وقع هذا الاختلاف ، أو لارتفع بعد الوقوف علىٰ النص [1].

إذاً:

ثبت من ناحية النقل أن رسول الله ﷺ لم يفسِّر القرآن كله.

وأما من ناحية العقل ، فالعقل يتساءل: إذا كان الرسول قد فسّر القرآن كله ، فأين هذا التفسير.

والباحث يعلم أن كل أقوال النبي ﷺ وحركاته وما إلىٰ هنالك ضُبطت في كتب السيرة والسنة والأحاديث الشريفة ، ولم ينقل لنا أحد تفسيراً كاملاً عن النبي ﷺ.

وإلىٰ هذا الرأي الوسط ذهب جماعة من العلماء القدامىٰ والمحدثين، من ذلك مثلاً: قال الإمام ابن جزي الكلبي رحمه الله تعالىٰ: ورد عن النبي ﷺ كثير من تفسير القرآن فيجب معرفته ، لأن قوله عليه السلام مقدّم علىٰ أقوال الناس[2].

وقال الإمام الزركشي رحمه الله تعالىٰ وهو يتحدث عن الحكمة من أن النبي ﷺ لم يفسّر القرآن كله: إن الله تعالىٰ أراد أن يتفكر عباده في كتابه ، فلم يأمر نبيه علىٰ التنصيص علىٰ المراد[3].

---

(١) للتوسع يراجع: التفسير والمفسرون: ١/٤٨ ـ ٥٤.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل: ١/٧.

(٣) البرهان في علوم القرآن: ١/١٥.

ومن المحدثين تحدّث ـ كما مر قبل قليل ـ الشيخ الذهبي عن المسألة بتفصيل سهل يسير ، ومنهم أيضاً ـ الدكتور عبد الله شحاتة حيث قال: والحق أن رسول الله ﷺ بيّن الكثير من معاني القرآن لأصحابه كما تشهد بذلك كتب الصحاح ، ولم يبيّن كل معاني القرآن[1].

* * *

لكن ما هي أوجه بيان السنة للقرآن الكريم؟

هناك بحوث وكتب في هذا المجال ، لكن الشيخ الذهبي اختصر الموضوع بقوله:

الوجه الأول: بيان المجمل في القرآن ، وتوضيح المشكل ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق.

فمن الأول ـ بيانه عليه الصلاة والسلام لمواقيت الصلوات الخمس، وعدد ركعاتها ، وكيفيتها ، وبيانه لمقادير الزكاة ، وأوقاتها ، وأنواعها ، وبيانه لمناسك الحج ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «خذوا عني مناسككم» وقال: «صلوا كما رأيتموني أصلي».

وقد روىٰ ابن المبارك عن عمران بن حصين أنه قال لرجل: إنك رجل أحمق ، أتجد الظهر في كتاب الله أربعاً لايجهر فيها بالقراءة؟ ثم عدّد عليه الصلاة ، والزكاة ، ونحو ذلك ، ثم قال: أتجد هذا في كتاب الله تعالىٰ مفسّراً؟ إن كتاب الله تعالىٰ أبهم هذا ، وإن السنّة تفسر هذا[2].

ومن الثاني: تفسيره ﷺ للخيط الأبيض والخيط الأسود في قوله

---

(١) علوم التفسير: ١٢ ـ ١٣.

(٢) للتوسع يراجع: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١/ ٤٠.

تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾[1] بأنه بياض النهار والسواد الليل.

ومن الثالث: تخصيصه ﷺ الظلم في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[2] بالشرك، فإن بعض الصحابة فهم أن الظلم مراد منه العموم، حتىٰ قال: وأيّنا لم يظلم نفسه؟

فقال النبي ﷺ: «ليس بذلك، إنما هو الشّرك».

ومن الرابع: تقييده اليد في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾[3] باليمنى.

الوجه الثاني: بيان معنىٰ لفظ أو متعلقه، كبيان المغضوب عليهم باليهود، والضالين بالنصارى، وكبيان قوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾[4] بأنهما مطهرة من الحيض والبزاق والنخامة، وكبيان قوله تعالىٰ: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾[5]: بأنهم دخلوا يزحفون علىٰ أستاههم وقالوا: حبة في شعيرة.

الوجه الثالث: بيان أحكام زائدة علىٰ ما جاء في القرآن الكريم، كتحريم نكاح المرأة علىٰ عمتها وخالتها، وصدقة الفطر، ورجم الزاني المحصن، وميراث الجدّة، والحكم بشاهد ويمين، وغير هذا كثير يوجد في كتب الفروع.

الوجه الرابع: بيان النسخ، كأن يبيّن رسول الله ﷺ أن آية كذا نسخت بكذا، أو أن حكم كذا نسخ بكذا، فقوله عليه الصلاة

---

(١) البقرة: ١٧٨.
(٢) الأنعام: ٨٢.
(٣) المائدة: ٣٨.
(٤) البقرة: ٢٥.
(٥) البقرة: ٥٨ ـ ٥٩.

والسلام: «لا وصية لوارث» بيان منها أن آية الوصية للوالدين والأقربين منسوخ حكمها وإن بقيت تلاوتها ، وحديث: «البكر بالبكر جلد مئة وتغريب عام» بيان منه أيضاً لنسخ حكم الآية الكريمة: ﴿وَٱلَّتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾[1] وغير هذا كثير.

الوجه الخامس: بيان التأكيد ، وذلك بأن تأتي السنّة موافقة لما جاء به الكتاب ، ويكون القصد من ذلك تأكيد الحكم وتقويته ، وذلك كقوله عليه السلام: «لا يحلّ مال امرئ مسلم إلا بطيب نفسه منه» فإنه يوافق قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[2].

وقوله عليه السلام: «اتقوا الله في النساء فإنهن عوان في أيديكم ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله» فإنه موافق لقوله تعالىٰ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[3].

* * *

لكن ما هي مصادر التفسير النبوي؟

لدىٰ تتبع ما جاء في بطون أمهات الكتب تبين أن أهم مصادر التفسير النبوي هي:

١ـ كتب الأحاديث الشريفة: ذلك لأن علماء الحديث كانوا يجمعون الأحاديث النبوية كلها ، ولا يفرقون بين الأحاديث التي تتحدث عن التفسير عن الأحاديث العامة ، وعندما صنّفت وبوّبت ، وُضعت الأحاديث المتعلقة تحت باب مستقل يسمّىٰ باب التفسير ، ولو نظرنا

---

(١) النساء: ١٥.

(٢) النساء: ٢٩.

(٣) النساء: ١٩ ، وللتوسّع يراجع التفسير والمفسرون: ١/ ٥٧ ـ ٥٨.

ـ مثلاً ـ في صحيح البخاري لوجدنا باباً مستقلاً يدعىٰ باب التفسير ، وفيه (٥٤٨) خمسمئة وثمان وأربعون حديثاً شريفاً.

لكن يمكن تقسيم كتب الأحاديث إلىٰ طبقات وذلك حسب منهج المحدثين ، وذلك:

الطبقة الأولى: في صحيحي البخاري ومسلم وموطأ مالك ، وهذه المصنفات فيها الأحاديث المتواترة والحسنة.

الطبقة الثانية: وفيها بعض الأحاديث التي لم ترق إلىٰ مقام ما أورده البخاري ومسلم ، مثالها: سنن الترمذي ، ومسند أحمد.

والطبقة الثالثة: وفيها الشاذ والمنكر والمضطرب ، مثال ذلك: مسند ابن أبي شيبة ، ومعاجم الطبراني ، وسنن البيهقي.

الطبقة الرابعة: وفيها ما جمع من أفواه الوعاظ والقصّاص ونحو ذلك ، ومثالها ما صنفه أبو الشيخ وابن مردويه.

٢ـ كتب التفسير: وخاصة المشهورة منها ، وأهمها: تفسير الطبري ، وبحر العلوم للسمرقندي ، ومعالم التنزيل للبغوي ، وزاد المسير لابن الجوزي ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، والتفسير الكبير للرازي ، وأمثالهم.

٣ـ كتب التاريخ والسير والمغازي: ولعل أهمها السيرة النبوية لابن هشام ، وطبقات ابن سعد ، وتاريخ الأمم والملوك للطبري وغيرهم.

٤ـ كتب علوم القرآن وأسباب النزول: مثل كتاب البرهان للزركشي ، والإتقان للسيوطي ، وأسباب النزول للسيوطي ، وأسباب نزول القرآن للواحدي.

لكن الإشكاليات هنا تدور حول الكذب والوضع علىٰ النبي ﷺ في أبواب تفسيراته له.

ونرىٰ ذلك بوضوح فيما يتعلّق بمسألة فضائل القرآن الكريم وسوره:

فالمحققون من العلماء وجدوا أن فضائل القرآن سورة سورة ، جمع في حديث أو أكثر ونُسب إلىٰ رسول الله كذب وموضوع ، وهذا ما ذهب إليه ابن الصلاح ، وابن تيمية ، والزركشي ، والسيوطي ، وعيرهم[1] .

مثال ذلك ما أورده الزركشي : عن نوح بن أبي مريم أنه قيل له : من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة؟

فقال : إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبي حنيفة ، ومغازي محمد بن إسحاق ، فوضعت هذه الأحاديث حسبة!!

ومن الأمثلة علىٰ الأحاديث الموضوعة التي نسبت إلىٰ رسول الله ﷺ ما أورده الواحدي بالسند المتصل إلىٰ أبيّ بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : (من قرأ سورة مريم أعطي من الأجر بعدد من صدّق بزكريا وكذّب به ، وبيحيى ، وعيسىٰ ، وهارون ، وإبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب وإسماعيل ، عشر حسنات ، وبعدد من دعا لله ولداً ، وبعدد من لم يدع له ولداً)!![2]

لكن لا يعني هذا أن كل ما ورد من أحاديث في فضائل السور فهو موضوع!!

أبداً ، فهناك طائفة من الأحاديث الصحيحة تتحدث عن فضائل بعض السور وبعض الآيات[3] .

إضافة إلىٰ أن بعض علماء التفسير قد انتهجوا نهجاً رائعاً ، حيث رفضوا كل أمثال تلك الأحاديث الموضوعة وبينوا بطلانها ، مثال ذلك : التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي الأندلسي (ت : ٧٤١ هـ) ،

---

(١) للتوسع : مقدمة ابن الصلاح : ١١٢ ، مقدمة في أصول التفسير : ٣١ ، البرهان : ١/ ٤٣٢ ، الإتقان ٢٠/ ١٩٨ .

(٢) الوسيط : ٢/ ١٣٩ .

(٣) للتوسع يراجع : صحيح البخاري : كتاب فضائل القرآن : ٣/ ١٥٩ .

وفتح البيان في مقاصد القرآن لصديق حسن خان (ت: ١٣٠٧ هـ).

إذاً:

اعتمد المسلمون في عصر الرسول ﷺ في تفسيرهم للقرآن علىٰ أربعة مصادر:

١ـ **القرآن الكريم**: حيث نبّه رسول الله في كثير من الأحايين إلىٰ فكرة تفسير القرآن بالقرآن، مثال ذلك ما رواه أنس قال: جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ذكر الله الطلاق مرتين، فأين الثالثة؟ فقال: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[1].

٢ـ **الرسول ﷺ**: وسيأتي بيان تفصيلي لهذا الأمر.

٣ـ **الاجتهاد وقوة الاستنباط**: وذلك إذا لم يجدوا في القرآن تفسيراً، ولم يُنقل إليهم حديث نبوي في ذلك.

٤ـ **أهل الكتاب من اليهود والنصارى**: علىٰ أساس أن لديهم آثاراً من الكتب السماوية السابقة، ولعل هذا الأمر هو الذي أدىٰ إلىٰ إدخال الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير!.

وهكذا نستطيع القول بلا ريب أبداً: إن المفسرين قدموا عناية فائقة بما ورد من تفسير النبي ﷺ، وكان الوضوح في ذلك من خلال: كثرة الاستشهاد بها، والاكتفاء بذلك دون غيره في تفسير الآيات، وترجيح التفسير النبوي علىٰ غيره من التفسير المأثور، ورد بعض تفسيرات السلف الصالح إذا كانت مخالفة للمأثور عن رسول الله ﷺ، ومن أراد التوسع فليراجع كتب التفاسير.

* * *

وفي نهاية المطاف ننقل بعض أقوال الإمام ابن تيمية (ت: ٧٢٨ هـ)

---

(١) البقرة: ٢٢٩، وللتوسع: الإتقان للسيوطي: ٢/٢٤٦.

رحمه الله تعالىٰ من مقدمته في أصول التفسير ، لما فيها من الإفادة والفائدة الشيء الكبير.

فإن الكتب المصنفة في التفسير مشحونة بالغث والسمين ، والباطل الواضح والحق المبين ، والعلم إما نقل مصدّق عن معصوم ، وإما قولٌ عليه دليل معلوم ، وما سوىٰ ذلك فإما مزيّف مردود ، وإما موقوف لا يعلم أنه بهرج ولا منقود.

فمثال ما لا يفيد ولا دليل علىٰ الصحيح منه: اختلافهم ـ المفسرين ـ في لون كلب أصحاب الكهف ، وفي البعض الذي ضُرب به موسىٰ من البقرة ، وفي مقدار سفينة نوح وما كان خشبها ، وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر ، ونحو ذلك ، فهذه الأمور طريق العلم بها النقل ، فما كان من هذا منقولاً نقلاً صحيحاً عن النبي ﷺ ، كاسم صاحب موسىٰ أنه الخضر ، فهذا معلوم ، وما لم يكن كذلك ، بل كان مما يؤخذ عن أهل الكتاب ـ كالمنقول عن كعب ، ووهب، ومحمد بن إسحاق ، وغيرهم ، ممن يأخذ عن أهل الكتاب ـ فهذا لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه إلا بحجة ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه ، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه»[1].

وكذلك ما نقل عن بعض التابعين وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب ، فمتىٰ اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة علىٰ بعض.

ومعلوم أن المنقول في التفسير أكثره كالمنقول في المغازي والملاحم ، ولهذا قال الإمام أحمد: ثلاثة أمور ليس لها إسناد: التفسير ، والملاحم ، والمغازي.

---

(١) فتح الباري: ٥/ ٣٢٣ ، المسند: ٤/ ١٣٦.

ويروىٰ: ليس لها أصل ، أي إسناد ، لأن الغالب عليها المراسيل ، مثل ما يذكره عروه بن الزبير ، والشعبي ، والزهري ، وموسىٰ بن عقبة ، وابن إسحاق ، ومن بعدهم كيحيىٰ بن سعيد الأموي ، والوليد بن مسلم ، والواقدي ، ونحوهم من كتّاب المغازي.

فإن قال قائل: فما أحسن الطرق للتفسير؟ فالجواب: إن أصحّ الطرق في ذلك أن يفسّر القرآن بالقرآن ، فما أُجمل في مكان فإنه قد فُسّر في موضع آخر ، وما اختُصر في مكان فقد بُسط في موضع آخر.

فإن أعياك ذلك فعليك بالسنّة ، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له ، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن ، . . . ولهذا قال رسول الله: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»[1] يعني السنّة ، والسنة أيضاً تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن ، لا أنها تتلىٰ كما يتلىٰ ، وقد استدل الإمام الشافعي ، وغيره من الأئمة علىٰ ذلك بأدلة كثيرة ، ليس هذا موضع ذلك ، والغرض: أنك تطلب تفسير القرآن منه ، فإن لم تجده فمن السنة ، كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلىٰ اليمن: «بم تحكم؟» قال: بكتاب الله ، قال: «فإن لم تجد؟» قال: بسنة رسول الله ، قال: «فإن لم تجد؟» قال: أجتهد رأيي ، قال: فضرب رسول الله ﷺ في صدره وقال: «الحمد لله الذي وفّق رسولَ رسولِ الله لما يرضي رسول الله»[2].

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد ، فإنها علىٰ ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق ، فذاك صحيح.

---

(١) سنن أبي داود: ٤/ ٢٧٩ ، سنن ابن ماجه: ١/ ٦.

(٢) مختصر سنن أبي داود: ٥/ ٢١٢ ، سنن الدارمي: ١/ ٦٠.

والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل، ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به، ولا نكذبه، وتجوز حكايته، لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلىٰ أمر ديني!

ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيراً، ويأتي عن المفسرين خلاف لسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعدّتهم، وعصا موسىٰ ـ عليه السلام ـ من أي الشجر كانت، وأسماء الطيور التي أحياها الله تعالىٰ لإبراهيم عليه السلام ـ وتعيين البعض الذي ضُرب به القتيل من البقرة! ونوع الشجرة التي كلّم الله منها موسىٰ عليه السلام، إلىٰ غير ذلك مما أبهمه الله تعالىٰ في القرآن، مما لا فائدة من تعيينه تعود علىٰ المكلفين في دنياهم ولا دينهم.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، قال: حدثنا مؤمل، قال: حدثنا سفيان، عن أبي الزناد قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما: التفسير علىٰ أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لايُعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالىٰ ذكره، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم[1].

أجل!

ففي هذه الرسالة اللطيفة من الفوائد الشيء الكثير، لذا علىٰ الدارس والباحث مراجعتها ليتوقف عند المنهج الذي كان يسير عليه علماء هذه الأمة، وخاصة فيما يتعلق بكتاب الله تعالىٰ.

* * *

---

(١) مقدمة في أصول التفسير، بتحقيق الدكتور عدنان زرزور، ط١، ١٩٧١ م دار القرآن الكريم.